

مدرسة «الحوليات»

كي بوردي
ترجمة : مصطفى الناجي

هناك نزعة جديدة للتأريخ الرسمي الفرنسي، تعبر عن نفسها في صمت في «مجلة التركيب»«La Revue de la Synthèse» خلال العشرينات، وبشكل أكثر علانية في مجلة «الحوليات» «Les Annales» خلال الثلاثينات، معارضة بذلك هيمنة «المدرسة الوضعية»، إن هذا التيار المجدد يهمل الحدث، ويلح على المدة الطويلة؛ يحول اهتمامه عن الحياة السياسية، نحو النشاط الاقتصادي، التنظيم الاجتماعي وسيكولوجية الجماعة، يعمل على تقريب التاريخ من العلوم الانسانية الأخرى. وقد تم عرض هذه التوجهات الجديدة ضمن المقالات السجالية لـ "ل. فيفير L. Febver" (معارك من أجل التاريخ)، والبيان غير المكتمل لـ "م. بلوخ M. Bloch" (مهنة المؤرخ)، أو ترجمت ضمن تطبيقات نموذجية مثل أطروحات "ف. بروديل F. Braudel" (البحر الأبيض المتوسط في عهد فيليب الثاني)، و"پ. غوبير P. Goubert" (بوڤي وبوڤيسيس خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر)، وغيرها. وبعد الحرب العالمية الثانية، فرض «التاريخ الجديد» نفسه اعتمادا على مجلة ـ« الحوليات Les Annales ESC» ـ التي كانت شهرتها تزداد اتساعا، وعلى معهد للبحث والتدريس ـ الشعبة السادسة من المدرسة التطبيقية للدراسات العليا L'Ecole pratique des Hautes Etudes ـ وعلى شبكة من العلاقات داخل أوساط النشر والصحافة. وخلال الخمسينات والستينات قام الساهرون على «الحوليات» بإلقاء الضوء على ميادين الجغرافية التاريخية، التاريخ الاقتصادي، الديمغرافية التاريخية؛ وخلال السبعينات، دشنوا ميدان تاريخ العقليات. وبعد نصف قرن من التجارب،

طبعت روح «الحوليات» جل المؤرخين بفرنسا - دون أن تقضي على جميع المعارضات الجامعية - وأثرت في بعض المؤرخين الأجانب، بأوروبا الغربية، الولايات المتحدة وأمريكا اللاتينية.

1 - فيفر و «الحوليات» :

حصل لوسيان فيفر، المزداد سنة *1878*، على تكوينه كمؤرخ بنانسي، ثم باريس (المدرسة العليا للأساتذة، والسوربون) في وقت كانت فيه «المدرسة المنهجية» تمجد اهتمامها بالتنقيب عن التفاصيل، وتعطي الامتياز للبعد السياسي، وتبدو مهووسة بالحدث. وقد كان فيفر الشاب مضطرا للخضوع لقوانين النمط الجامعي المهيمن آنذاك : فخصص أطروحته لنيل الدكتوراه لقضية ديبلوماسية وعسكرية؛ إلا أنه حاول أن يوسع رؤيته لتشمل مجتمعا ما، داخل إطار منطقة ما؛ وهو ما يفسر عنوان الأطروحة: «فيليب الثاني و[إقليم] فرانش - كونتي» والعنوان الفرعي «دراسة في التاريخ السياسي، الديني والاجتماعي» (*1911*). بعد ذلك بقليل، ألف ل. فيفر «تاريخ [إقليم] فرانش - كونتي» (*1912*) الذي يعبر عن تعلقه بهذا الإقليم. عين أستاذا بستراسبورغ سنة *1919*، ثم أستاذا بالكوليج دو فرانس سنة *1933* فواصل من خلال أبحاثه ومحاضراته عمله متخصصا في القرن السادس عشر. ففي كتبه الأساسية، اهتم بالسير، وهي نوع تقليدي، إلا أنه يجعل «بطله» يواجه مجتمع عصره؛ إنه يتحول بالتدريج من تحليل شخصية بارزة إلى استكشاف العقليات الجماعية، نجد هذه المقاربة في كتبه «Un destin : Martin Luther» (قدر : مارتان لوثر، *1928*)؛ «Origène et des Periers ou l'enigme du Cybalum mundi» (أوريجين ودي بيرييه أو لغز [كتاب] Cybalum mundi (*1942*)؛ «Le problème de l'incroyance au XVII^{e} siècle : La religion de Rabelais» (مشكلة الكفر في القرن السادس عشر : ديانة رابليه، *1942*)؛ «Autour de l'Hoptaméron, amour sacré, amour profane» (حول المجموعة القصصية l'Hoptaméron، الحب المقدس والحب المدنس (حول مارغريت دي نافار). وقد استعمل هذا «المتخصص في القرن السادس عشر» موهبته أيضا في مقالات عديدة مثل:

«G. Budé et les origines de l'humanisme français»

(ج. بوديه وجذور النزعة الإنسانية الفرنسية (مجلة التركيب ، 1907) ؛

«La gerre de paysans en Allemagne»

(حرب الفلاحين بألمانيا ، الحوليات Les Annales، 1934) ؛

«Le capitalisme liègeois au XVI siècle»

(رأسمالية ليبج خلال القرن السادس عشر، الحوليات، 1940) ؛ الخ...

وقد انضم لوسيان فيفر منذ وقت مبكر إلى مشروع هنري بيبر . وقد كان هذا الفيلسوف أحد الأوائل الذين تصدوا لـ «المدرسة المنهجية»؛ إنه يرى في التاريخ شيئا آخر غير ممارسة التنقيب عن التفاصيل، يرى فيه الأساس الذي يقوم عليه أحد علوم تطورات الإنسانية. وهو ما تعبر عنه أطروحته : «مستقبل الفلسفة: خطاطة لتركيب المعارف المؤسسة على التاريخ» (1893). في سنة 1900 ، أصدر H. Berr «مجلة التركيب»، التي أشرف على إدارتها طيلة نصف قرن. وقد أصبحت أعدادها ملتقى يجمع إ. دوركايم وأتباعه من علماء الاجتماع؛ پ ڤيدال دي لابلاش P. Vidal de la Blache وأصدقاؤه الجغرافيون؛ ف. سيمياند F. Simiand واقتصاديون آخرون؛ هـ. ڤالون وعلماء نفس آخرون ؛ وأخيرا ل. فيفر ومؤرخون آخرون معادون لـ «الوضعيين». إن علم التاريخ، باعتباره حصيلة للتجارب الإنسانية، مؤهل لأن يصبح علم العلوم، في نظر هـ. بير. وبالنسبة لـ ف. سيمياند، يجب على التاريخ أن يذوب في أحد العلوم الاجتماعية ويعطيها عمقا زمنيا. أما ل. فيفر، فإنه يبقى مترددا بين وجهتي النظر هاتين، ويتشبث بفكرة وحدة العلوم الإنسانية. وفي سنة 1920 ، أصدر هـ. بير سلسلة ضخمة - «تطور الإنسانية» - ظهر منها أربعون مجلدا خلال ما بين الحربين. وقد ساند ل. فيفر هذا العمل الجماعي، خصوصا بنشره، ضمن هذه السلسلة. لكتابه «الأرض والتطور الإنساني» سنة 1922 . وقد حفظ درس پ. ڤيدال دي لابلاش، فعمل على مد جسر بين التاريخ والجغرافية، واقترح أن «يبرز، عن طريق المقارنة والتجريد، الدور الذي يلعبه في التواريخ الإنسانية عدد من العوامل التي تعتبر جغرافية بالدرجة الأولى: المسافة، الفضاء، الموقع...» (ص 37). إن هذا الكتاب العام جدا، والسابق لأوانه ربما، يفتح في نفس الوقت الطريق أمام الجيو - تاريخ، «أمام جغرافية إنسانية حقيقية تعود بهذا الميدان إلى بداياته».

وخلال العشرينات، بعدما عادت الألزاس ـ لورين إلى الحضيرة الفرنسية، جمعت جامعة ستراسبورغ أساتذة لامعين ومبتكرين. هناك التقى ل. فيفر وم. بلوخ، فانعقدت بينهما أواصر الصداقة، ووضعا مشروعا لتجديد التاريخ؛ وفتحا حوارا مع الجغرافي هـ. بوليغ وعالم النفس ك. بلونديل، والعالم الاجتماعي ج. لوبرا، وزملاء آخرين متفتحين على التفاعل بين التخصصات. كان م. بلوخ ول. فيفر قد وصلا [آنذاك] إلى سن النضج، وكانا يتمتعان بدعم دار النشر أ. كولان فأسسا مجلة «حوليات التاريخ الاقتصادي والاجتماعي» سنة *1929*. وقد أعلنت افتتاحية العدد الأول عن هدفين : *1*) القضاء على عقلية التخصص، التشجيع على تعدد التخصصات، تسهيل وحدة العلوم الإنسانية؛ *2*) الانتقال من مرحلة المجادلات النظرية (مجادلات «مجلة التركيب») إلى مرحلة الإنجازات الملموسة، خصوصا البحوث الميدانية الجماعية في مجال التاريخ المعاصر. ويوجد ضمن التحرير، بالإضافة إلى المديرين. أربعة مؤرخين : أ. بيغانيول، ج. إسبيناس، هـ. بيرين و هـ. هاوزر؛ وعالم اجتماع : م. هالبواكز؛ وعالم سياسة : أ. سيغفريد؛ وجغرافي : أ. ديمانجون. وبعد تعيين ل. فيفر بالكوليج دي فرانس، سنة *1933*، ثم تعيين م. بلوخ بالسوربون. سنة *1936*. غادرت [مجلة] «الحوليات» ستراسبورغ نحو باريس، فرفعت من عدد قرائها، وأيقظت ميولا [جديدة] في أوساط الباحثين الشباب. إلا أن ظروف الحرب والاحتلال جعلت المجلة تعرف صعوبات إدارية،. فيما بين *1939* و *1944*. وتفقد كثيرا من الأعضاء الساهرين عليها (وخاصة م. بلوخ). وبعد تحرير [فرنسا]، حدث تحول فرض نفسه. فابتداء من *1946*، احتفظ ل. فيفر وحده بإدارة المجلة، واستعان بمجموعة جديدة ـ ف. بروديل. ج. فريدمان، ش. مورازي وپ. لوييو Leuillot؛ وأعطى المجلة عنوانا جديدا : «الحوليات. اقتصادات. مجتمعات. حضارات»؛ وعدل عن اتجاه التاريخ الاقتصادي والاجتماعي نحو تاريخ العقليات. وفي نهاية المطاف، أصبح ل. فيفر بمثابة الخالق الأساسي لمجلة ساهم فيها بـ *924* عمل، بين مقالة، وحاشية، ونقد وتقرير، بين سنتي *1929* و *1948*.

لقد حاكم ل. فيفر في مقالاته المتعددة المنشورة بـ «مجلة التركيب» و«الحوليات» «التاريخ التاريخاني» (l'histoire historisante) وسنقتصر على مثال واحد يتعلق بإنجاز كتاب «تاريخ روسيا» سنة *1932* في ثلاثة مجلدات،

الذي ألفه ش. سينيوبوس. ش، إيزنمان، ب. ميليوكوف وآخرون (وقد قدم ل. فيفر تقريرا عنه بـ «مجلة التركيب»، العدد VII، 1934). وقد أخذ ل. فيفر أولا على الكتاب طريقة تركيب فصوله: «إن تاريخ روسيا الحقيقي يبدأ في الصفحة 81 مع مقال مياكوتين الذي أدخل العشائر السلافية إلى تاريخ أوربا الشرقية في حوالي القرن السابع. في الصفحة 81، تم الحديث عن القرن السابع؛ وبسرعة، تم الانتقال إلى إيفان المرعب، في الصفحة 150؛ ثم إلى بيير الأكبر! لنلخص : إنه كتاب تاريخ في 1416، وثلاثة مجلدات؛ مئتا صفحة لعشرة قرون (القرن VII ـ XVII)، في مقابل 1140 صفحة لقرنين ونصف من الزمان (1682 ـ 1932)». ونتساءل، للوهلة الأولى، عن السبب الذي جعل ل. فيفر يعد الصفحات بدقة متناهية، ويطالب بالتوازن في طرق التعامل مع المراحل. إلا أننا نفهم بطريقة أفضل حين نعلم أن سينيوبوس يبرر في افتتاحيته هذا التعامل العام والموجز مع عشرة قرون من تاريخ روسيا، منذالبداية حتى بيير الأكبر، في مئتي صفحة، بـ«النقص في الأحداث» و«النقص في الوثائق». إلا أن ل. فيفر يرفض أن يتصور التاريخ كتسجيل لأحداث متتالية انطلاقا من الوثائق المكتوبة وحدها. «تقولون: إن تاريخ العشرة قرون غير قابل للمعرفة. عفوا! إنه الأكثر قابلية للمعرفة. فكل المهتمين به يعرفون ذلك؛ كل أولئك الذين يبذلون جهدا.. ليس لنسخ الوثائق، ولكن لإعادة بناء الماضي، اعتمادا على تضافر عدة تخصصات». ومن ثمة ينصح ل. فيفر باستعمال وثائق غير مكتوبة (آثار اركيولوجية. مثلا) وبالاستعانة بعلوم مجاورة (مثل اللسانيات وعلم الأخلاق).

بعد ذلك، يشير ل. فيفر الانتباه للقبليات الإيديولوجية لدى ش. سينيوبوس وأصدقائه «الوضعيين». «ولكن [ماذا عن] مقادير «المواد» كما يقال في علم الصيدلة؟ السياسة أولا! وليس مُورا وحده من يقول ذلك! إن مؤرخينا يقولون ذلك بأكثر مما فيه الكفاية؛ إنهم يطبقونه. إنه نسق حقا. بل ربما كان نسقا مضادا. مرة أخرى، يفتتح ش. سينوبوس نشيد النصر على شرف التاريخ ـ اللوحة... وهو ما تعودت على تسميته بـ «نسق الصوان».. صوان منسق جيدا ومنظم بشكل جميل! القمطر الأعلى، السياسة : «الداخل» على اليمين، و«الخارج» على الشمال، لا مجال للغموض. القمطر الثاني : في الركن على اليمين. «حركة السكان»؛ وفي الركن على اليسار، «تنظيم المجتمع»..

وفي القمطر الثالث، يسكن تاريخ روسيا... الظواهر الاقتصادية.. أو إن شئتم : الفلاحة، الصناعة والتجارة... إننا في الواقع، لسنا أمام تاريخ لروسيا. إننا أمام موجز للتاريخ السياسي لروسيا من 1682 إلى 1932، مع تقديم من مائتي صفحة حول روسيا بما قبل بيير الأكبر... من الواضح أن ميليوكوف ومساعديه قد عرفوا، في الإطار التقليدي للعهود، كيف ينشئون نصوصا دقيقة جدا، ومطعمة بما فيه الكفاية، بأحداث «التاريخ الروسي - أحداث اقتصادية، اجتماعية، أدبية وفنية، في حدود كون هذه الأحداث موجهة من طرف النشاط السياسي للحكومات». وبتعبير آخر. فإن ل. فيفر يوصي من جهة أولى بعدم عزل مراقي الواقع الاجتماعي [عن بعضها]، وبإبراز تقاطعها؛ ومن جهة أخرى، يوصي بعدم قلب هرم الأجهزة : أي بألا نهبط من السياسي نحو الاقتصادي، ولكن بأن نصعد من الاقتصادي نحو السياسي.

وفي نهاية نقده، يقدم ل. فيفر خطاطة لتاريخ آخر - تاريخ «الحوليات» - الذي يعارض تقاليد «المدرسة المنهجية» في جميع النقط. «حين أفتح (تاريخ روسيا) (ل ش. سينيوبوس، پ. ميليوكوف وآخرون)، يالها من فرجة! قياصرة ضعيفو الشخصية، خرجوا من الكوميديا الساخرة «أوبو ملكا Ubu roi»؛ مآسي القصور؛ وزراء ابتزازيون؛ بيروقراطيون - بيغاوات؛ قرارات جائرة حسب الأهواء. أما الحياة القوية، الأصيلة والعميقة لهذاالبلد؛ الحياة في الغابة والاستبس، المد والجزر في نسبة السكان، المد الكبير ذو الإيقاع غير المنتظم، والذي يتدفق متجاوزا الأورال l'Oural، ليصل إلى الشرق الأقصى السيبيري؛ والحياة القوية للوديان، الصيادون، البحارة، النقل؛ والممارسة الزراعية لدى الفلاحين، أدواتهم، تقنياتهم، دورة المزروعات، الرعي، استغلال الغابات...؛ اشتغال الضيعات الكبرى، ثروة الأراضي ونمط عيشها؛ ولادة المدن، أصلها، تطورها، مؤسساتها، طبائعها؛ الأسواق الروسية الكبيرة؛ التشكل البطيء لما نسميه بورجوازية...، دور العقيدة الأرثذوكسية في الحياة الجماعية الروسية...؛ القضايا اللغوية؛ النزعات الإقليمية؛ ولا أدري ماذا أيضا». إن ل. فيفر يسعى إلى تاريخ شامل، يتناول جميع مظاهر الأنشطة الانسانية.

إن ل. فيفر لا يستثمر كل طاقته في «صراعه» ضد «التاريخ التاريخاني»، بل يعرف أيضا كيف يكتب عملا نوذجيا، ويبرز منظورات جديدة. ونود أن نقدم كمثال على ذلك كتابه : «مشكلة الكفر في القرن 16 :

ديانة رابليه» المنشور سنة 1942. ففي مرحلة أولى، يعارض ل. فيفر أطروحة أ. لوفران A. Lefrane ـ انظر أيضا «دراسات حول جارجانتوا» (1912)، و«بانتاغرويل Pantagruel» (1922)، و«الكتاب الثالث Tier Livre» (1931) ـ التي جعلت من رابليه كافرا، زنديقا، وعقلانيا. وقد عاد مدير «الحوليات» إلى هذا الملف لدراسته بشكل أكثر دقة. فعلا، فقد يكون عدة شعراء ـ J. Visagier; N.Bourbon, J.C. Scaliger ـ اتهموا رابليه حوالي 1536 ـ 1537 بكونه أحد «أتباع لوسيان». وقد برهن ل. فيفر على أن الأمر يتعلق هنا باتهام لا أهمية له، كان منتشرا بكثرة في الأوساط الأدبية. بعد ذلك، حوالي 1543 ـ 1544، قد يكون رابليه اعتبر «ملحدا»، من طرف ج. كالفان، ج. بوستيل، وبعض رجال الأخلاق بالسوربون، وقد أثبت ل. فيفر أن مفهوم الإلحاد في ذلك العصر كان يعني الانحراف عن الديانة الرسمية فقط. أما بالنسبة للدعايات الشاذة عن العرف الديني، والتي تزخرف روايات رابليه ـ مثل ولادة جارجانتوا عن طريق الوريد الأجوف بالأذن اليسرى لأمه، وهي تلميح لتكون عيسى في بطن أمه دون اتصال جنسي ـ فإن ل. فيفر يذكر بأنها «سخريات كنسية»، مزاحات لا ضرر فيها، تتردد بكثرة في كلام الرهبان الفرنسيسكانيين؛ وأن رابليه قد انتمى إلى النظام الفرنسيسكاني طيلة اثنتي عشرة سنة. وفي الأخير، يأخذ ل. فيفر على أ. لوفران السقوط في المفارقة الزمنية، و«قراءة نص ينتمي إلى القرن 16 بعيني رجل ينتمي إلى القرن العشرين».

وفي مرحلة ثانية، اهتم ل. فيفر بتحديد مسيحية رابليه. وفعلا، ففي «بانتاغرويل» (1532) و«جارجانتوا» (1534)، ترسم كل من رسالة غرانغوزيي لابنه، ووصف دير تيليم، مقاطع أخرى، توجهات دينية خاصة، وإذا جارينا «عقيدة العمالقة»، فإن هناك إلها يوجد في ثلاثة أشخاص، والابن هو الشخص ذو الامتياز [بين هؤلاء]. إن واجبنا الأول، والوحيد تقريبا، إزاء الربوبية، هو أن نقرأ، نتأمل ونمارس الإنجيل. إن الحياة الدينية حياة داخلية تماما. أما الاعتقادات الخرافية، صكوك الغفران، الحج. وتقديس القديسين فتتحول إلى أشياء مضحكة، وتصبح بالتالي مرفوضة. [وهكذا] لا يبدو أن الإكليروس يقوم بدور أساسي. كل هذه الإشارات تدل على أن رابليه قد «تذوق الإنجيل»، واستجاب لتبشير لوثر. وفي نفس الوقت، فإن الراهب الفرنسيسكاني القديم لا يخضع للمعيار اللوثري في تبريره للعقيدة. وهنا يبين ل. فيفر أن

ديانة رابليه يجب أن تفهم على ضوء «فلسفة المسيح» لإيراسم، الذي يعتمد على قراءة العهد الجديد، يصرح بإيثاره لشخص الإبن، يلغي وساطة مريم العذراء ووساطة القديسين، يخفف من دنس الخطيئة الأصلية، ويعلن عن ثقته في الطبيعة الإنسانية. وبالتالي يجب تصنيف رابليه إلى جانب إيراسم. لوفيفر ديتالي، توماس مور، بين «الانجيليين» الذين كانوا يأملون تحولا في المسيحية دون صدامات. بين *1500* و *1535*؛ ولا يجب تصنيفه بين «البروتستانيين» مثل كالفان، فاريل، بيز، وغيرهم،الذين كانوا قبلوا الانفصال عن الكنيسة الرومانية، وأسسوا كنيسة مُصلّحة، بين *1535* و *1565*.

وفي مرحلة ثالثة، يتساءل ل. فيفر عن إمكانية الكفر في القرن السادس عشر. وذلك لأن الدين، في تلك الفترة، كان يتحكم في الحياة اليومية تحكما تاما. فالكنيسة تراقب التعميد، الزواج، الدفن؛ تفرض الوصفات الغذائية والمحرمات الجنسية؛ تحدد توقيت أيام العمل وأيام الأعياد؛ تؤطر الاحتفالات الجماعية (قداس، طواف، تسلية)؛ تكون المثقفين وتراقب المكتب. أضف إلى ذلك أن الأدوات الذهنية لم تكن موجودة للتعبير عن الفكر المنطقي، ولم تكن اللغة متوفرة على معجم كاف (فقد كانت مفاهيم السببية، التركيب، الاستنتاج الخ منعدمة)، ولا على تراكيب ملائمة (فقد كانت الجمل غير منظمة: ،أزمنة الفعل غير متوافقة؛ والأشكال مفرطة الكثرة). من المؤكد أن العالم الروحي للقرون الوسطى قد تمت خلخلته بسبب «نهضة» «إحياء» النماذج الإغريقية ـ الرومانية، بسبب تطور المطبعة، واكتشاف القارات. وفي نفس الوقت، فإن العلوم، الرياضيات، الفلك، الفيزياء، الطب ـ لم تكن تتوفر على الأدوات التي تسمح لها بالتكون (نقدم مثالا واحدا : بما أن الساعات كانت نادرة، فإن قياس الزمن ظل بعيدا عن الدقة). أما العلماء ـ ل. دافينشي، أ. پاري، و. سيرڤي، ج. برونو، كوبيرنغ ـ فقد ظلوا روادا معزولين ومهددين. وكان يجب أن ننتظر القرن التالي، و«مقال في المنهج» لديكارت، نحو جماعة بور- رواپال، والمنظار الذي استعمله غليلي، الذين خلقوا شروط الإعلان عن عقلانية مرتكزة على العلم. وبتعبير آخر، فإن الإلحاد في عصر رابليه شيء لا يعقل، «أن نزعم أن القرن السادس عشر قرن إلحاد، قرن عقلاني... فذلك أفدح الأخطاء... لقد كان، على العكس من ذلك قرنا يبحث في كل شيء عن الصدى الرباني» (ص *500*). بهذه البرهنة المتقنة، وجه ل. فيفر التاريخ نحو دراسة البنيات الذهنية.

2 ـ م. بلوخ : مهنة المؤرخ.

ولد مارك بلوخ سنة *1886* ، في أسرة بورجوازية يهودية. التحق بالمدرسة العليا للأساتذة، وحضر دروس ف. لوت، ش. فيستر ، پ. فيدال دي لابلاش بالسوربون، وأقام مدة بجامعتي ليبزغ وبرلين الألمانيتين؛ ثم درّس التاريخ بثانويات مونبلييه وأميانز حتى *1914*. عاش التجربة المرّة للحرب العالمية الأولى كضابط، وعند نهاية الحرب، ناقش أطروحة صغيرة الحجم. ـ «ملوك وأقنان» ـ حول العتق الذي منحه آخر الكابيتيين المباشرين. وخلال سنوات *1919* ـ *1936*، عين بلوخ أستاذا بجامعة ستراسبورغ، حيث أوفدت السلطات أساتذة موهوبين لاعتبارات تتعلق بضمان نفوذها. وقد عقد م. بلوخ، بهذه البؤرة الثقافية، صلات مثمرة مع مؤرخين ـ ل. فيفر، أ. بيغانيول، ش. إ. بيران، ج. لوفيفر ـ علماء نفس ـ ش. بلونديل، م. هالبواك، ج. لوبرا. وقد ضاعفت جماعة ستراسبورغ هاته مكانتها بإصدارها مجلة «حوليات التاريخ الاقتصادي والاجتماعي» سنة *1929*. وكمتخصص في تاريخ القرون الوسطى، فقد عرف م. بلوخ بنفسه بواسطة ثلاثة أعمال رئيسية : «الملوك صانعوا المعجزات»، وهي دراسة حول الطبيعة الخارقة المنسوبة للقدرات الملكية، خاصة بفرنسا وانجلترا (الطبعة الأولى، *1923*)؛ «السمات الفريدة لتاريخ البادية الفرنسية»، وهو تحليل لتطور البنيات الزراعية في الغرب القروسطي والحديث، من القرن الحادي عشر إلى الثامن عشر (الطبعة الأولى. *1931*)؛ «المجتمع الفيودالي» وهو تركيب لمعارف المرحلة حول التنظيم الاجتماعي في القرون الوسطى (الطبعة الأولى، *1936*). كان م. بلوخ يرى شهرته تزداد انتشارا : كان يلقي محاضرات بمدريد، لندن، أوسلو؛ ضاعف من مقالاته وتقاريره في مجلة «الحوليات»؛ ثم عوض هـ. هاوزر بالسوربون سنة *1936*.

وبينما كان بلوخ في أوج نشاطه، يقيم معهدا للتاريخ الاقتصادي بجامعة باريس، اضطر إلى إيقاف أعماله. فقد تم تجنيده مرة أخرى ليشهد هذه «الحرب الغريبة»، ابتداء من شتنبر *1939*، وليشهد هزيمة ماي ـ يونيو *1940*. وأفلت بالكاد من الحصار، ففر إلى لاكروز. وهناك كتب. ما بين يوليوز ـ شتنبر *1940* كتاب «الهزيمة الغريبة» في حينه، وهو شهادة دقيقة جدا، تكشف عن

مواطن الخلل في المجتمع الفرنسي؛ تعري نقط الضعف لدى العسكريين، الساسة، رجال الأعمال، المثقفين؛ وتسمح بفهم انهيار الجيش، «هجرة» وانتحار الجمهورية، ورغم كونه يهوديا مندمجا [ضمن المجتمع الفرنسي]، ملحدا عن قناعة، بالإضافة إلى كونه مقاوما قديما، فإن ذلك لم يحمه من تهديد الإجراءات اللاسامية للمحتلين الألمان ومعاونيهم من الفرنسيين. في سنة *1941*. وبداية *1942*. سمح له فيشي بالتدريس بكليمون - فيران، ثم بمونبلييه. ولكن [هذا] المؤرخ اضطر إلى الاختفاء. في نونبر *1942*. حينما زحفت القوات الألمانية على «المنطقة الحرة». وبعد بضعة شهور، التحق بالمقاومة بمنطقة ليون. وعشية تحرير [فرنسا]، ألقى النازيون عليه القبض، فعذبوه وأعدموه.

خلال مقامه بلاكروز، سنة *1941*، و«لكي يسترجع توازنه الروحي قليلا» أجهد م. بلوخ نفسه للتفكير في [مسألة] المنهج في التاريخ، آخذا بعين الاعتبار تجربة مجموعة «الحوليات». وقد تم إعداد ونشر مخطوطه الذي لم يتمم، من طرف ل. فيفر، تحت عنوان مزدوج : «دفاع عن التاريخ أو مهنة المؤرخ». ورغم طابعه المتقطع، فإن كراس م. بلوخ جاء على شكل جواب على الكتاب الموجز لكل من س.ف. لانجوا وش. سينيوبوس، وعلى شكل بيان لمدرسة «الحوليات» مضاد لمرجع المدرسة المنهجية. ومع ذلك، فإن م. بلوخ يبدو قليلا أقل نقدا تجاه «التاريخ التاريخاني». من ل. فيفر؛ إنه يقدر إنجازات الاستقصاء في القرن التاسع عشر: «أعادت المدرسة الألمانية، [على يد] رينان، فوستيل دي كولانج، للاستقصاء مكانته الفكرية. لقد تم إرجاع المؤرخ إلى منضدة علمه» (ص. *39*). وفي نفس الوقت، يرى م. بلوخ أن الاستقصاء يمكن أن يتمخض عن الفراغ في أعمال أنصار ج. مونود. «إن الهوامش السفلى في الصفحات تمارس على كثير من أصحاب الاستقصاء سحرا يصل إلى حدود الدوار» (ص *40*). ويدين م. بلوخ، كما فعل ل. فيفر، غياب الطموح لدى المؤرخين «الوضعيين»... «إنهم منشغلون جدا، بحكم تكوينهم الأول، بالصعوبات، الشكوك، البدايات المتجددة باستمرار في النقد الوثائقي، و[بذلك] كان الدرس الأول الذي استنتجوه من ملاحظاتهم هاته، هو التواضع السلبي.

وفي نهاية المطاف، لم تظهر لهم قدرة الفرع المعرفي، الذي خصصوا له مواهبهم، على الاستنتاجات اليقينية في الحاضر، وإمكانات التطور الكثيرة في المستقبل». (ص *15*).

وعلى عكس ما يراه ش. ف. لانجوا وش. سينيوبوس، فإن م. بلوخ يثبت أن «مخزون الوثائق» الذي يتوفر عليه التاريخ لا حدود له؛ ويقترح ألا يقتصر الاستعمال على الوثائق المكتوبة، بل أن نلجأ الى أدوات أخرى، أركيولوجية، فنية، مسكوكية، الخ. «فكما أن معرفتنا بالغزوات الجرمانية رهينة بالتنقيب في الوقائع والمعاهدات، فإنها رهينة بنفس الدرجة، بحفريات القبور، وبدراسة أسماء الأماكن... وبإمكان الصور المرسومة أو المنحوتة، ووضعية القبور وتأثيثها أن تخبرنا عن عقائد ومشاعر من ماتوا، بنفس الدرجة التي تخبرنا بها عنها كثير من الوثائق المكتوبة، على الأقل.» (ص. 27). حقا، إن الوثائق المكتوبة المتعلقة بالعصور اليونانية - الرومانية القديمة، قليلة؛ ومعروفة، مصنفة، مترجمة، ومعلّق عليها، وهكذا فإن كل أعمال الكتاب اليونانين - أفلاطون، أرسطو، كسينوفون، بلوتارك، الخ - والكتاب الرومانيين - شيشرون، سيزار، تيت، ليف، الخ - قد جمعت في المئتين أو الثلاثمئة مجلد، ضمن سلسلة بودي. ومع ذلك، ففي الوقت الذي كان يكتب فيه م. بلوخ. كانت النظرة للعالم الهيليني والروماني قد بدأت تتعمق وتتجدد بسبب البحوث الأركيولوجية. فبفضل الكشف، مثلا، عن معابد، مسارح، حمامات، أسواق، محلات تجارية، بيوت، أزقة، ساحات بمحطتي أوستيOstie، وبومبي Pompéi، أمكن لكاركوبينو أن يؤلف كتابه «الحياة اليومية بروما» (الطبعة الأولى، 1938).

ولدراسة العصور الوسطى الغربية، لم يقتصر م. بلوخ على سجلات الكنائس، العقود الديوانية أو حياة القديسين، بل اهتم أيضا بالكنوز الدفينة في العصور الغامضة؛ وهو ما قاده إلى وضع الخطوط العامة لـ «تاريخ النقود بأوربا» (انظر أيضا الفصول القليلة المنشورة بعد وفاته، سنة 1954). وفي الوقت نفسه، كان إ. سالان يلقي الضوء على الأزمنة المظلمة للممالك الأجنبية، عن طريق جرد للأسلحة، الدروع، والأثاث التي تركت بالقبور؛ فنشر كتابه «الحديد في العصر الميروفينجي» سنة 1943. إن العضو المؤسس لـ«الحوليات»، باقتراحه لتوسيع الوثائق لتشمل المصادر غير المكتوبة، قد كان يحس بالتطور الهائل الذي عرفته الحفريات بعد الحرب العالمية الثانية (مثلا : پ.م، دوفال : «باريس، من البدايات إلى القرن الثالث»، 1961 ؛ م، دي بوار «مختصر أركيولوجيا العصور الوسطى»، 1975 ؛ ر، بوشانان، «الحفريات الصناعية

ببريطانيا»، 1972، الخ).

إن م. بلوخ لا يقصد فقط إلى استغلال وثائق جديدة، بل يريد أن يكتشف مجالات أخرى، لقد توجه، أكثر من غيره من المسؤولين عن «الحوليات»، نحو تحليل الوقائع الاقتصادية. وقد تأثر في هذا المجال، دون أن يعترف بذلك علنا، بأعمال كارل ماركس، الذي حثه على الربط بين البنيات الاقتصادية والطبقات الاجتماعية؛ كما استوحى أبحاث الاقتصادي ف. سيمياند والمؤرخ هـ. هاوزر، التي فرضت عليه أن يقدر درجة التقلبات الاقتصادية على أساس سلسلات الأثمنة. وقد حقق م. بلوخ دون شك أهم أعماله في كتاب «السمات الخاصة لتاريخ البادية الفرنسية، من القرن الحادي عشر إلى القرن الثامن عشر» (1931). ففي هذا الكتاب يعاين م. بلوخ أشكال استغلال الأرض، تقنيات الانتاج، طرق الإسكان، الأطر الاقطاعية، الممارسات الجماعية خلال مدة طويلة جدا وفي مجموع التراب الوطني. إن هذه الطريق التي خطها قد تم تبنيها من طرف المتخصصين في القرون الوسطى من الجيل التالي، كما يتبين من أعمال ر. بوتروش R. Boutruche «نظام السيادة والاقطاع» (1959)، أو ج. دوبي G. Duby «الاقتصاد القروي والحياة في البوادي في الغرب القروسطي» (1962)، بالإضافة إلى ذلك، يأمل م، بلوخ أن يتجه التاريخ الاقتصادي نحو العالم المعاصر : «هل نؤمن أنه يكفينا أن ننغمس في قراءة المناقشات البرلمانية والوثائق الديوانية، لكي نفهم مجتمعات اليوم؟ ألا يجب أن نعرف أيضا كيف نؤول بيانا حول ميزانية بنك: وهو نص أكثر استغلاقا بالنسبة للجاهل من كثير من الحروف الهيروغليفية؟ هل نقبل من مؤرخ عصر تسوده الآلة أن يجهل كيف تبنى الآلة وكيف تطورت؟» (ص 28). وقد تم حفظ هذا الدرس بعد عشرين سنة، كما تشهد على ذلك أعمال س. فوهلن C. Fohlen، «صناعة النسيج خلال الامبراطورية الثانية» (1956)؛ ب. جيل B. Gille «تكون المشاريع الرأسمالية الكبرى، من 1815 إلى 1948» (1959)؛ أو ج. بوفيي : «ولادة القرض الليوني Lyonnais من 1863 إلى 1882» (1961).

لقد حاول م، بلوخ أن يوسع حقل التاريخ في اتجاهات أخرى. وقد أثار اتصاله ب أ. ڤارانياك A. Varagnac انتباهه إلى مرحلة ما قبل التاريخ؛ ونبهته قراءة أ. ڤان جينيب A. Van Gennep إلى أهمية الفلكلور. تعلم المبادئ الأولية الاتنولوجيا فغامر بكتابة «الملوك صانعو المعجزات» (1923). ففي هذا البحث

المجدد، يعالج م. بلوخ البعد السحري للسلطة الملكية ـ خصوصا القدرة المنسوبة للملوك الكابيتيين على علاج [مرض] الغدب بمجرد اللمس. إلا أنه لم يعد فيما بعد إلى أعمال [في مجال] الانتروبولوجيا التاريخية؛ وترك لأصدقائه مهمة رسم معالم ميدان تاريخ العقليات (انظر أيضا مجموعات مقالات ج. لوبرا، «دراسات في السوسيولوجيا الدينية»، *1956*؛ ول. فيفر، «في قلب الدين، خلال القرن السادس عشر» (*1957*). بالإضافة إلى ذلك، أدرك م، بلوخ أهمية اللسانيات : «كيف نسمح لرجال لا يدركون في أغلب الأحيان موضوعات دراساتهم إلا عن طريق الكلمات، بأن يجهلوا الإنجازات الأساسية للسانيات» (ص *28*). ففي كتابه «دفاع عن التاريخ»، يتساءل م. بلوخ، على مدى الصفحات، عن معنى كلمات مثل «قن» (ص *81*)، «قرية» (ص *82*)، امبراطورية» (ص *82*)، «معمر» (ص *84*)، «اقطاع» (ص *86*)، «ثورة» (ص *87*)، «حرية» (ص *88*) الخ. «لقد قدم لنا بعض أفراد الجيل السابق، مثل فوستيل دي كولانج، نماذج رائعة لدراسة المعنى هاته، لعلم الدلالة التاريخي هذا. ومنذ ذلك الوقت، ساهم تطور اللسانيات بمزيد من شحذ الأداة. فليكن الباحثون الشباب قادرين على استعمالها دون كلل» (ص *85*). وفي الواقع، فإن حدوس بلوخ لن تستلهم في إنجازات نموذجية في مجال الاتنوتاريخ وعلم الدلالة التاريخي إلا فيما بعد بوقت طويل، عند منعطف الستينات والسبعينات.

ويلح م. بلوخ على ضرورة تكوين المؤرخين الشباب تكوينا صلبا : «إنه لذو وقع حسن أن يمتلك المؤرخ رؤية ولو سطحية حول التقنيات الرئيسية لمهنته... إن لائحة المواد المساعدة التي نقترحها على طلابنا المبتدئين، قصيرة جدا» (ص *28*). من الملائم إذن أن نضيف إليها تعليما أوليا حول الحفريات، الاحصاء، تاريخ الفن، اللغات القديمة والحديثة. وهذا لا يكفي. فلكي يصبح الانسان متخصصا حقيقيا في التاريخ، يجب أن يعرف أيضا العلوم المجاورة : الجغرافيا، الاثنوغرافيا، الدمغرافيا، الاقتصاد، علم الاجتماع، اللسانيات «إذا كان تعدد القدرات لدى الفرد الواحد (المؤرخ)، شيئا بعيد المنال... فمن الممكن أن نفكر في تظافر التقنيات المستعملة في تخصصات مختلفة»(ص *28*)، الشيء الذي يفترض عملية تنظيم العمل في شكل مجموعات، تضم متخصصين في فروع مختلفة! وهو البرنامج الذي طبقته «الحوليات»، بعد بضع

سنوات، بتأسيسها للشعبة السادسة بالمدرسة التطبيقية للدراسات العليا. إن اللجوء المستمر إلى منهج المقارنة، الاهتمام بإعطاء المؤرخ تكوينا متعدد التخصصات، الرغبة في إنجاز بحوث جماعية، كل ذلك تفسره القناعة المتجذرة لدى م. بلوخ بوحدة علوم الإنسان. وهو ما يعبر عنه في هذا التحديد: «إن مشهد الأنشطة الإنسانية المختلفة هو ما يشكل الموضوع الخاص للتاريخ» (ص 11)... «إن العلم الوحيد الذي يحتاج باستمرار إلى الجمع بين دراسة الموتى ودراسة الأحياء هو علم الإنسان عبر الزمن» (ص 15).

يفتتح كتاب «مهنة المؤرخ» بسؤال طرحه ابن م. بلوخ على أبيه: «بابا، فسر لي لماذا يصلح التاريخ؟» (ص 1)، ويأتي الجواب بعد ذلك بعدة صفحات «كلمة واحدة تقول كل شيء، وهي التي تهيمن على دراساتنا وتنيرها: الفهم» (ص 72)، يجب على المؤرخ أن يكون شغوفا بالفهم، الشيء الذي يعني أن يتخلى، قدر المستطاع، عن أحكام القيمة، «لقد أصبحت العلوم أكثر خصوبة حينما تخلت عن المركزية البشرية القديمة المتعلقة بثنائية الخير والشر» (ص 71)، وبالتالي، فإن على المؤرخ أن يسلم نفسه لنوع من الزهد والتطهير، عن طريق التخلي عن أحكامه المسبقة، مشاعره ومراجعه الفكرية. «لولوج علم ما، يجب على الإنسان أن ينسلخ عن ذاته تقريبا»، (ص 70). إن مدرسة «الحوليات» تشاطر إذن المدرسة المنهجية رغبتها في - أو ادعاءها - الوصول إلى معرفة موضوعية. وفي نفس الوقت، فإن العمل على التجريد، رفض الأحكام الأخلاقية، واستبعاد أي غائية، لا يدل على هروب م. بلوخ أمام المشاكل التي يطرحها مجتمعه. إن أفكاره حول «الهزيمة الغريبة» لسنة 1940، وانخراطه في المقاومة سنة 1943. كل ذلك يشهد على أن هذا المؤرخ لا ينعزل في برج عاج. فحسب م. بلوخ «يجب فهم الحاضر على ضوء الماضي» (ص 13). إن الذهاب والإياب المستمران بين الماضي والحاضر يمكنان من إغناء معرفتنا حول المجتمعات القديمة، ويلقيان الضوء على المجتمعات المعاصرة نفسها.

3 ـ ف. بروديل Braudel: أزمنة التاريخ

ولد فرناند بروديل سنة 1902، درس التاريخ، اجتاز امتحان التبريز، ووجد نفسه يشغل منصبا بالجزائر، حيث بقي ما يقرب من عشر سنوات، من

1923 إلى *1932*. وهناك اكتشف البحر المتوسط «متوسط الضفة الأخرى، كما لو كان مقلوبا». التقى ل. فيفر الذي أصبح «أستاذه» وصديقه؛ والذي اقترح عليه أن يحول الموضوع العادي لأطروحته «السياسة المتوسطية لفيليب II إلى بحث أصيل ومبتكر حول «البحر المتوسط في عهد فيليبب II». ويفترض تغيير العنوان تحولا كبيرا في الرؤية. وخلال سنوات عديدة، نقب ف. بروديل في أرشيفات خزانات لم تكن قريبة المنال دائما، بسيماناكس، مدريد، جين، روما، البندقية، وحتى ديبروفنيك. إلا أن مهمة بالبرازيل قد أبعدته عن انشغالاته المتوسطية، من سنة *1935* إلى *1937*، ولكنها فتحت أمامه في نفس الوقت آفاق أمريكا الجنوبية، بعد هذه المرحلة السعيدة، جاءت القطيعة المؤلمة، لقد فرضت عليه الحرب العالمية الثانية، من *1939* إلى *1945* محنة طويلة، إذ ألقي عليه القبض بعد اندحار الجيش الفرنسي، ووضع بمعسكر للأسرى قرب لوبيك. وخلال اعتقاله بألمانيا نظم بحثه وكتب مخطوطا أول له، اعتمادا على الذاكرة، دون كتب، ودون كراسات. وحين عاد إلى فرنسا سنة *1945* ـ *1946*، راجع توثيقه، وأنهى صياغته فناقش أطروحته لنيل دكتوراه الدولة. وفي الواقع، فإن «البحر المتوسط» عمل عمر بكامله : لقد تم إعداد المشروع حوالي سنة *1929* : ونشر أولا سنة *1949*؛ ثم أعدت منه طبعة أخرى منقحة نشرت سنة *1966*. إن الأمر يتعلق بكتاب قيم، تجسد فيه التجديد المنهجي بشكل واضح؛ وبكتاب ضخم (*1160*) صفحة في الطبعة الأولى؛ و*1222* صفحة في الطبعة الثانية) يحدد «النموذج المثالي» للأطروحة بالنسبة لأجيال عديدة من المؤرخين.

إن هذا العمل،المعبر عن روح «الحوليات»، يصدر عن التقليد المتبع في «التاريخ التاريخاني». ولم تعد الشخصية المركزية فيه رجل دولة، هو فيليب II، ولكن فضاء بحريا هو البحر الأبيض المتوسط. وقد تأثر ف. بروديل بدروس الجغرافية الإنسانية : بكتاب «لوحة عن فرنسا» ل ب. فيدال دي لابلاش، وبأطروحات إقليمية ل ر. بلانشار، ج. سيون Sion و أ. ديمانجون، الذين كانوا يهتمون بخصائص البيئة الطبيعية أثناء دراستهم للتحولات التاريخية. واستوحى ف. بروديل أيضا تجربة ل. فيفر الذي فتح الحوار بين الجغرافية والتاريخ في كتابه «الأرض والتطور الإنساني». لقد حاول مؤلف «البحرالمتوسط»، الذي يستمد قوته من تجارب سابقيه، أن يؤسس [علم] الـ «جغرافية ـ تاريخ»، ويحدد له برنامجا كالتالي : «إنه يطرح المشاكل الإنسانية

من منظور جغرافية إنسانية ذكية، تنظر إلى كيفية توزيع تلك المشاكل في المكان وتضعها في خرائط إن أمكن؛... يطرحها من زواية الماضي، واضعا الزمن في الاعتبار؛ يحرر الجغرافية من تتبعها للوقائع الحالية التي تشكل همها الوحيد أو تكاد، ويفرض عليها استغلال مناهجها وروحها لإعادة التفكير في الوقائع الماضية. إنه يجعل من الجغرافية التاريخية التقليدية على طريقة لونيون ، التي تكاد تقصر جهودها على دراسة حدود الدول، والدوائر الإدارية، دون اهتمام بالأرض نفسها، بالطقس، بالتربة، بالنباتات والحيوانات... جغرافية حقيقية، إنسانية ومهتمة بالماضي؛ يفرض على الجغرافيين أن يعطوا مزيدا من الاهتمام للزمن (الشيء الذي قد يكون سهلا نسبيا)، وعلى المؤرخين أن يهتموا أكثر بالمكان)الشيء الذي قد يكون أكثر إحراجا لهم)»... (الطبعة الثانية، المجلد 2، ص 295). لقد توصل ف. بروديل، وهو يفكر في جدلية الزمان والمكان، إلى تصور أزمنة متعددة: «هكذا، توصلنا إلى تفكيك التاريخ إلى مستويات على شكل رفوف، أو، إن شئنا إلى التمييز بين زمن جغرافي، زمن اجتماعي، وزمن فردي» (ص 15).

المرقى الأول : «[عبارة عن] تاريخ ساكن تقريبا، تاريخ الإنسان في علاقاته بمحيطه، وهو تاريخ بطيئ في سيره وتحوله، مكون غالبا من تجارب تتكرر بإلحاح، ودورات معادة باستمرار» (ص 13). وقد قدم ف. بروديل مستوى المدة الطويلة في القسم الأول من أطروحته، حيث يصف الجبال ـ الأطلس، الأبنين، طوروس، الخ ـ وسكان الجبال، وعاداتهم الموروثة، وانتجاعهم المنتظم؛ يصف السهول الساحلية ـ سهول اللانجدوك، كمبانيا، ميتيدجا ،الخ ـ ومستنقعاتها، وسكانها الذين تنخرهم الملاريا؛ يصف البحار ـ البحر الأسود، بحر الإيجه، بحر الأدرياتيك، الخ. التي تفرض سواحلها رياحها، وتياراتها أشكال الإبحار وإيقاعه؛ يصف الجزر ـ سردينيا، كريت، قبرص، الخ ـ التي تمثل في نفس الوقت موانئ للبحارة، مخابئ للقراصنة مواطن للهجرة. ويبين الكاتب حدود البحر المتوسط : شمالا. المناطق المعتدلة التي تسكنها جماعات مستقرة وهي أراض مسيحية، وجنوبا الصحاري القاحلة التي ينتقل عبرها الرحل، وهي أراض إسلامية؛ ثم يحدد السمات الخاصة للطقس المتميز بهيمنة الجفاف، والذي يتناوب فيه شتاء معتدل وصيف حار. [أما] الزمن الجغرافي فيبدو متداخلا مع الأزل؛ إن الفضاء المتوسطي، على ما يبدو، لم يتغير، بين إمارة أوغست وملك

فيليب II. ومع ذلك، فإن مفهوم الإستمرارية يجب تصحيحه. فقد سجل الطقس، على مر القرون، بعض التحولات؛ فقد تعرضت النباتات لبعض التقهقر؛ وانتقلت مدن من مكان إلى آخر؛ وعدلت ممرات الطرق أحيانا. وهكذا فإن معاينة الجغرافيا تقود إلى «الكشف عن أكثر التغيرات التاريخية بطئا».

المرقى الثاني : «[وهو] تاريخ ذو إيقاع بطئ... تاريخ بنيوي؛ بل لا مانع في تسميته تاريخا اجتماعيا، [لأنه] تاريخ للجماعات والتجمعات» (ص *13*). وقد عالج ف. بروديل مستوى المدة الدائرية في القسم الثاني من أطروحته، حيث رسم محاور المواصلات البرية والبحرية، قاس المسافات التجارية اعتمادا على معدل سرعة البواخر؛ حصر حجم الأسواق ـ طوسكانا أو الأندلس ـ، مجال نفوذ الموانئ ـ البندقية، ليفورن، مرسيليا. أحصى عدد الناس الذي يمكن أن يكون آنذاك ستين مليونا؛ قدر توزيعهم، مع الإشارة إلى المناطق الخالية ـ مثل الألغارف ـ والمناطق الآهلة ـ مثل مالطا؛ قدر النمو الديمغرافي (كان بصقلية سنة *1501* : *600.000* نسمة، و *1.100.000* سنة *1607*). اهتم بالميكانيزمات النقدية، مع الإشارة إلى نضوب الذهب السوداني أواخر القرن *15*، وتدفق الذهب الكارايبي والمكسيكي، ثم فضة البيرو، اللذان كانا يصلان الى اشبيلية، يمران عبر آنفير ثم عبر جين، فينتشران عبر البلدان المتوسطية، خلال القرن السادس عشر. وقد أدت وفرة المعادن الثمينة إلى ارتفاع منتظم للأسعار، من قرن إلى قرن، من *1530* إلى *1620*)، وهو ارتفاع يعرف تقلبا كل عشر سنوات (انخفاض من *1558* إلى *1567*؛ ارتفاع من *1567* إلى *1576*؛ انخفاض من *1576* إلى *1588*، الخ). وتنعكس حركة الأسعار هاته على المداخيل، حيث كان التجار والسادة يزدادون غنى، بينما يزداد العمال والفلاحون فقرا. إن دراسة ف. بروديل للأوضاع المتوسطية جعلته يلتقي بأعمال س. إ. لابروس،الذي قام، قبل وقت قصير، بتحليل تطور الأثمان بفرنسا خلال القرن الثامن عشر. بمثل هذه المساهمات، بدأ تاريخ الاقتصاد يبني أسسه.

المرقى الثالث : «وهو تاريخ تقليدي، أو إن شئنا، تاريخ ذو بعد فردي وليس ذا بعد إنساني...إنه حركة التسطح، الموجات التي تخلقها الحركة القوية للأسواق. إنه تاريخ التغيرات الوجيزة، السريعة والحادة» (ص *13*). وقد تم تناول المستوى الزمني القصير في الجزء الثالث من الأطروحة. حيث يعرض ف. بروديل الامبراطوريتين المتنافستين، الإسبانية والتركية، عن طريق وصف

مؤسساتهما المعقدة، أقاليمهما المتنوعة، ساكنتهما المتعددة الأجناس؛ ويقدر قواتهما العسكرية عن طريق معاينة تنظيم الجيشين، قيمة الأسطولين. وشبكة التحصينات، وبعد الانتهاء من وضع الديكور، ينتقل المؤرخ الى ميدان الحركة، فيستعرض «الأحداث» الرئيسية : استقالة شارل كان (*1556*)، معاهدة كاتو ـ كامبرسيس السلمية (*1559*)، الحرب الإسبانية ـ التركية (من *1561* إلى *1564*)، اختبار القوة بمالطا (*1564*)، تأسيس الرابطة المقدسة (من *1566* إلى *1570*)، معركة ليبانت (*1571*)، الهدنات الإسبانية ـ التركية (السنوات *1578*، *1581*، *1583*) وحلقات أخرى من مواجهة غطت أكثر من نصف قرن. إن هذا النص الموثق والمكتوب بشكل جيد، يمثل إغناء للتاريخ العسكري والدبلوماسي. إلا أن كاتبه لا يميل إلى نوع تقليدي [من التاريخ] بهذا الشكل: وهكذا فإنه لا يحتفظ من معركة ليپانت بوقائعها بقدر ما يحتفظ بنتائجها الدائمة. «إذا كف [المؤرخ] عن التعلق بالأحداث وحدها، بهذه القشرة البراقة والسطحية للتاريخ، فإن ألف حقيقة جديدة ستظهر مُتجاوزة، دون ضجيج، للحدث في حد ذاته. فقد انكسر سحر القوة العثمانية...، وعادت المنافسة المسيحية إلى نشاطها...، وتفككت قوة الأسطول التركي» (ص *923*). إن ف. بروديل، باهتمامه بـ «التاريخ ـ المعركة» قد تراجع خطوة إلى الوراء لصالح المدرسة «الوضعية» التي ظلت محتفظة بموقع قوي في المؤسسات الجامعية؛ وفي نفس الوقت، وباعتباره ممثلا جديرا لمدرسة الحوليات، فإنه يرجع «ما هو حدثي» إلى المستوى الخلفي. إن [مقولة] «السياسي أولا» لـ إ. لافيس، قد عوضتها [مقولة] «السياسي ثانيا» لـ ف. بروديل.

لقد حقق ف. بروديل نجاحا استثنائيا، بعدما ناقش أطروحته. فخلال ما يقرب من عشرين سنة، من *1946* إلى *1968*، كان مسؤولا على إدارة مجلة «الحوليات» إلى جانب ل. فيفر أولا، ثم وحده فيما بعد، ثم ترأس الشعبة السادسة بالمدرسة العليا للدراسات التطبيقية، حصل بعد ذلك على منبر بالكوليج دو فرانس، وأشرف على بحوث عدة مؤرخين مبتدئين. وفي هذه الفترة، كتب سلسلة من المقالات، ذات طابع منهجي، جمعها ونشرها تحت عنوان: «كتابات حول التاريخ» سنة *1969*. وبشكل عام، فقد ظل ف. بروديل مخلصا لتوجيهات ل. فيفر وم. بلوخ : فأعلى من شأن وحدة العلوم الإنسانية، حاول بناء «تاريخ شامل»، وحافظ على الارتباط بين الماضي والحاضر. «بعد

تأسيس «الحوليات»...، وجد المؤرخ نفسه اقتصاديا، انتروبولوجيا، ديمغرافيا، عالم نفس، لسانيا... إن التاريخ أقل مهن العلوم الاجتماعية بنينة، وبالتالي أكثر مرونة وتفتحا... لقد ظل التاريخ سائرا في هذا الطريق، متغذيا من علوم الإنسان الأخرى... فهناك تاريخ اقتصادي...، وتاريخ جغرافي رائع...، وديمغرافية تاريخية...، بل هناك أكثر من ذلك، تاريخ اجتماعي... ولكن إذا طرح التاريخ الكلي قضية الاجتماعي في كليته، فإنه يطرحها دائما انطلاقا من حركة الزمن هاته نفسها... إن التاريخ الجدلي للزمن... هو دراسة للاجتماعي، لكل الاجتماعي؛ وهو بالتالي دراسة للماضي، وإذا للحاضر أيضا» (كتابات»، ص *103 ـ 104* و ص *106 ـ 107*). ورغم إنكاره أن يكون أقام «[اتجاها] تاريخانيا» ـ نوعا من هيمنة التفسير التاريخي ـ فإن ف. بروديل يضع مادته [الفكرية] في نقطة تقاطع العلوم الإنسانية.

من خلال إقامته حوارا دائما مع زملائه ـ عالم الاجتماع ج. غورفيتش، والديمغرافي أ. سوفي، والاثنولوجي ك. ليفي ستراوس، كان المؤرخ ف. بروديل يبحث عن نقط الاتصال بين العلوم الاجتماعية. إن هناك خلافات، في نظره، حول مفاهيم «المدة»، «البنية» و«النموذج». وفيما يلي بعض الأمثلة: فبينما يميز ج. غورفيتش بين زمانيات متعددة: «زمن المدة الطويلة والبطئ، الزمن الخادع أو الزمن المفاجأة، الزمن الدائري أو زمن الرقصة في نفس المكان، زمن الخفقان غير المنتظم، والزمن المتأخر على نفسه، الخ»، يضع ف. بروديل التاريخ على ثلاثة مراق: «على السطح، تاريخ حدثي ينتمي إلى الزمن القصير...؛ في الوسط، تاريخ الأوضاع، الذي يخضع لإيقاع أكثر بطئا...؛ وفي العمق، تاريخ بنيوي، ذو مدة طويلة، يتعلق بالقرون من الزمن» («كتابات»، ص *112* و ص *119*). وفي الوقت الذي يعارض فيه ك. ليفي ستراوس بين تاريخ يهتم بالتطور الخطي، في بعده الدياكروني، وبين اتنولوجيا تهتم بالبنية في بعدها الساكروني؛ ويؤكد أن هذين الفرعين المعروفين «يتميزان قبل كل شيء بمنظورات متكاملة: فالتاريخ ينظم معطياته بالنظر إلى التعبيرات الواعية؛ أما الاتنولوجيا فتنظم معطاياتها بالنظر إلى الشروط غير الواعية للحياة الاجتماعية»، يبرز ف. بروديل أن مدرسة «الحوليات» قد وجهت جهودها نحو التقاط الوقائع المتكررة، كما الوقائع المفردة؛ الوقائع الواعية كما الواقائع غير الواعية» («كتابات»، ص *104*). وحين يستعمل أ. سوفي نماذج،

رياضية بشكل مقصود، لتقدير النسبة المثلى للسكان في علاقاتها بمجموع الإنتاج، وبمعدله، وبالإنتاج الهامشي، يدعو ف. بروديل المؤرخين إلى السير على نفس المنوال، والاعتماد على النماذج «التي ليست سوى افتراضات، ومحاولات للتفسير...». ويجب أن يسير البحث، أبدا، من الواقع الاجتماعي إلى النموذج، ثم من النموذج إلى الواقع الاجتماعي، وهكذا دواليك، عن طريق سلسلة من التنقيحات، والأسفار المتجددة بصبر وأناة. إن النموذج هو، بالتناوب، محاولة لتفسير بنية معطاة... أداة لمراقبتها والتحقق منها... ومن حياتها نفسها» («كتابات»، ص 72).

وشرع ف. بروديل في عمل جيد ثان، خلقته انشغالاته التدريسية بالكوليج دي فرانس في نهاية الخمسينات. أخذ هذا العمل شكل منشور محدود (مجلد واحد) أواسط الستينات، ثم ظهر في صيغة أكثر اتساعا (ثلاثة مجلدات) سنة 1980، عنوانه: «الحضارة المادية، الاقتصاد والرأسمالية من القرن الخامس عشر إلى القرن الثامن عشر». يعالج الجزء الأول منه «بنيات الحياة اليومية، حياة كل يوم كما تفرض نفسها على الناس»؛ ويتناول القسم الثاني «آليات التبادل...، ميكانيزمات الاقتصاد والتجارة المبنيتان من طرف النظام الرأسمالي»؛ ويعاين الجزء الثالث «نظام الهيمنة الدولية...، اشتغال السلط الاقتصادية والسياسية»، ويبدو أن الخطوة الأكثر أصالة [في هذا الكتاب] هي إعطاء أهمية «للحياة المادية»: «في كل مكان، وفي أدق تفاصيل الوجود الإنساني، توجد حياة مادية مكونة من ممارسات روتينية، موروثات، نجاحات قديمة جدا. فالحياة الفلاحية مثلا، التي تحتل الصدارة على نطاق واسع عبر العالم قبل القرن الثامن عشر، ترجع جذورها إلى ما قبل القرن الخامس عشر نفسه، إلى آلاف السنين... هكذا الشأن بالنسبة للقمح، الأرز، الذرة، ولاعتمادات المطبخ الدائمة، أي لبعض عادات الإنسان الأكثر قدما ودواما. وكذلك الأدوات البسيطة، فهي قديمة قدم المزروعات؛ وقديمة أيضا بنفس الدرجة تقريبا، هذه الأدوات القليلة التعقيد، والتي تضاعف وتلين القوة العضلية للإنسان: الرافعة، المخروطة، الدواسة، المدورة، الخنزيرة... نفضل إذن أن تعني عبارة الحياة المادية، الحركات المتكررة، الإجراءات التجريبية، الوصفات القديمة، الحلول القادمة من الأزمنة المظلمة... إنها حياة بسيطة ولكن في نفس الوقت، لا يتم الخضوع لها خضوعا تاما، وليست ثابتة» (الطبعة الأولى، 1967، ص 10).

4 - الإنتاجات التاريخية

دشنت مدرسة «الحوليات» ميدان التاريخ الاقتصادي، منذ الثلاثينات. وفعلا، فقد حثت الأزمة الكبرى [المفكرين] المعاصرين على التساؤل حول [أسباب] التناوب بين مراحل الازدهار ومراحل الركود، في ميدان الأنشطة الاقتصادية؛ وكما يشهد بذلك كتاب ف. سيمياند : «التقلبات الاقتصادية والأزمة العالمية» (*1932*). وعلى المستوى التأريخي، فإن تحولا حقيقيا قد حدث مع كتاب ك. إ. لابروس «الخطوط العامة لحركة الأسعار والمداخيل بفرنسا خلال القرن الثامن عشر» (*1933*). ففي أطروحته الأولى استعان [هذا] الكاتب، ذو التكوين القانوني، والمتحول إلى ميدان الاقتصاد، ثم التاريخ، بسلسلات من الأثمنة - أثمنة القمح، الجودر، الخمر، الخ - المسجلة في الأسواق خلال فترة الاستقرار النقدي الممتدة من *1726* إلى *1789*؛ وبفضل هذه المعطيات الإحصائية التي فحصها وبلورها بدقة، قدر حركة المدة الاقتصادية الطويلة («التراند Trend» الذي يحدث كل قرن)، حركات المد والجزر على مدى خمس وعشرين سنة (المراحل أ و ب لدى سيمياند)، الدورات القصيرة التي تستغرق أقل من عشر سنوات (التي تحدث في ثنايا العقود)، التقلبات الموسمية خلال بعض الشهور؛ وقارن بين تطور أثمنة المنتوجات الفلاحية والصناعية، وبين تطور المداخيل (الريع العقاري، أرباح التجار، أجور العمال).

وفي أطروحته الثانية، درس ك. إ. لابروس «أزمة الاقتصاد الفرنسي أواخر عهد ما قبل الثورة» (*1943*) : وقد أثبت أنه، خلال النمو الطويل الأمد للقرن الثامن عشر، حدثت عملية ركود داخل الدورة من سنة *1774* إلى *1791*، أضيفت إليها أزمة غذائية خلال *1788* - *1789*؛ وبالمناسبة، أسس «نموذج» أزمة عهد ما قبل الثورة، وهي أزمة يهيمن فيها العنصر الزراعي، حيث يؤدي النقص الطارئ في المحاصيل إلى ارتفاع مفاجئ في أسعار الحبوب، الشئ الذي يؤدي إلى نقص في الاستهلاك الشعبي، يؤدي بدوره إلى فائض في إنتاج الصناعة التقليدية؛ وقد أوضح كيف أن الاختلالات الاقتصادية تنعكس بأشكال مختلفة على الطبقات الاجتماعية، وتقود نحو صدامات سياسية. لقد

لاحظ أن «الحد الأقصى» لثمن الخبز يتطابق مع الاستيلاء على [سجن] الباستيل، أواسط يوليوز *1789*، ومعنى ذلك أنه اكتشف بعدا جديدا للثورة الفرنسية.

إن ك. إ. لابروس لا ينتمي بشكل صارم إلى مدرسة «الحوليات»؛ إنه متأثر كثيرا بفكر ماركس وبالنشاط [السياسي] لجوريس؛ ولكنه قبل بالتعاون مع زملاء م. بلوخ ول، فيفر. ولذلك كان يدرس في نفس الوقت بالسوربون القديمة، وبالشعبة السادسة بالمدرسة التطبيقية للدراسات العليا؛ وبهاتين المؤسستين. كوّن جيلا من المؤرخين الاقتصاديين بين *1946* و *1966*. وقد طبقت الطرق الإحصائية التي طورها ك. إ. لابروس. في أعمال عديدة حول الدورات والأزمات، مثل أطروحة أ. شابير، «بحث حول تقلبات الأسعار بفرنسا من *1789* إلى *1820*» (*1945*)، أو البحث الجماعي الذي قام به كل من ك. إ. لابروس نفسه، ج. ديزير. أ. تاوديسك. م. أجيلون، وآخرون، «مظاهر الأزمة بفرنسا من *1846* إلى *1851*» (*1956*). أضف إلى ذلك أن «تاريخ الأوضاع» الذي أسسه ك. إ. لابروس. و«الجغرافية ـ التاريخ» التي جددها ف. بروديل. قد تم المزج بينهما بدقة في بحوث تتعلق بالمبادلات التجارية في فضاءات واسعة ومدد طويلة، مثل : ب. شونو «اشبيلية والمحيط الأطلسي *1504* ـ *1650*» (*1956*)؛ ف. كروزيه «الاقتصاد البريطاني والحصار البري *1806* ـ *1813*» (*1958*). والأهم من ذلك، أن التاريخ الاقتصادي، الذي يرتكز على تحديدات لوائح أثمان المنتوجات ولوائح المداخيل، والتاريخ الديمغرافي الذي يعتمد على لوائح الولادات، الزواجات والوفيات، قد التقيا في أطروحات عديدة تتعلق بإطار محلي ومدة تغطي عدة قرون. وأكثر هذه الأطروحات شهرة، أطروحة ج. غوبير «بوفي وبوفيسيس خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر» (*1960*)؛ ر. باهريل «البروفانس السفلى القروية من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر» (*1961*)؛ ب. فيلاد «كاتالونيا في إسبانيا الحديثة» (*1962*)؛ إ. لوروي لادوري «فلاحو لانجدوك من القرن الخامس عشر إلى القرن الثامن عشر» (*1966*).

إن ك. إ. لابروس لا يقصد قصر «تاريخ اللوائح» على البعد الاقتصادي؛ إنه يريد أن يعطيه أيضا بعدا اجتماعيا. لقد وضع خلال مؤتمر روما المنعقد سنة *1955* مخططا لبحث حول البورجوازية خلال القرنين الثامن

عشر والتاسع عشر، مقترحا التنقيب في اللوائح الانتخابية، القوائم الضريبية، قوائم الممتلكات الموضوعة بعد وفاة المالك، عقود الزواج؛ كما يقترح تحديد هذه الطبقة الاجتماعية نظرا لموقعها الاقتصادي، وضعها القانوني، ونشاطها المهني، في نفس الوقت. وقد عرف هذا البرنامج تحققا جزئيا من خلال أعمال أ. دومار، «البورجوازية الباريسية من *1815* إلى *1848*» (*1963*) وأ. ج، توديسك، «كبار الأعيان بفرنسا، *1840* ـ *1849*» (*1964*)؛ وأصبح موضوع مناقشة خلال المناظرات [التي عقدت] حول «جذور ومناهج التاريخ الاجتماعي» (*1965*)؛ «Les niveaux de culture et les groupes sociaux» (*1966*)؛ «Les ordres et les classes» (*1967*). بالإضافة إلى ذلك، نجد تأثير إ. لابروس حاضرا في دراسات تعمل على استخدام التاريخ الكمي كأساس للتاريخ الاجتماعي. الحالة الأولى [يمثلها] ج. بوفيي. ف. فوري، و م. جيللي في كتاب «تقلبات الأرباح بفرنسا خلال القرن التاسع عشر» (*1965*)، الذين حاولوا التوصل إلى [معرفة] تطور مداخيل أرباب مصانع الحديد، مناجم الفحم، والأبناك، عن طريق القيام بتحليل معقد لميزانياتها، ثم عن طريق وضع رسم بياني للإنتاج، الأسعار، قيمة السلع، والأرباح. الحالة الثانية: [يمثلها] م. بيترو، في كتاب «إضرابات العمال، من *1871* إلى *1890*» (*1971*)، حيث يعيد صياغة إحصاء للإضرابات على أساس الوثائق المتوفرة (صحف، تقارير الشرطة، الخ)، بالنسبة لفترة لا تسجل فيهاالسلطة بانتظام التوقفات عن العمل؛ وقد أخضع هذه المعطيات لتحليل بواسطة الحاسوب، فوضع جداول، رسوما بيانية، وتوصل إلى توضيح الإضرابات العمالية في مظاهرها المختلفة ـ اتساعها، حدتها، مدتها، نتائجها ـ وذلك حسب السن، الجنس، وحسب الفصول والمهن.

واكتشفت مدرسة «الحوليات» ميدان التاريخ الديمغرافي، بعيد الحرب العالمية الثانية. ففي سنة *1946*، ربط جان موفريه، لأول مرة، بين الأزمات الغذائية، والطوارئ الديمغرافية، في ظل نظام ما قبل الثورة الفرنسية، وذلك بمقال له نشر بمجلة «السكان»؛ فقد أوضح أن قلة المحاصيل، التي تؤدي إلى ارتفاع في أسعار الحبوب،. وإلى الفقر، بل المجاعة، يُلازمها ارتفاع أقصى في نسبة الوفيات، ويصاحبها انهيار في نسبة الزواج والولادة. وحوالي *1950*، بدأ ب. غوبير يستخدم بشكل منظم «لوائح» الأثمان من جهة، وسجلات إحصاء

الرعية من جهة أخرى، مستفيدا في ذلك من التجربة المزدوجة لـ إ. لابروس وج. موفريه. اشتغل المؤرخ على هذه السجلات القديمة، وقام بعد بحث دقيق ومتعب للعقود؛ واستخرج منها لوائح هامة جدا للولادات، الزواجات، والوفيات. وذلك انطلاقا من قوائم إحصائية للرعية، خاصة بإقليم صغير، وبمدة تفوق القرن. وتمثل أطروحة ب. غوبير «بوفي وبوفيسيس من 1600 إلى 1730» (1960)، منعطفا تاريخيا؛ إذ تقدم نموذجا لتقدير النمو السكاني خلال مرحلة ما قبل الإحصاء. وفي نفس الفترة، بلور كل من ل. هنري، وهو ديمغرافي، و م. فلوري، وهو أرشيفي، «مختصر طريقة التنقيب» في سجلات إحصاء الرعية (الطبعة الأولى، 1956). واعتمد فيه منهجا صارما. ففي مرحلة أولى، يجب [على الباحث] أن ينقل على جذاذات خاصة، ليس فقط العقود ـ عقود التسمية، الزواج، الدفن ـ، ولكن أيضا المعلومات المتضمنة فيها ـ حول الأسماء العائلية والشخصية، الجنس، العلاقات العائلية، الأصول الجغرافية.. الخ. للأطفال، الآباء والشهود. وفي مرحلة ثانية، يجدر بالباحث أن يعيد بناء العائلات، في جذاذات أخرى، على مدى جيلين، الشيء الذي يسمح له بحساب معدل سن الزواج، وسن الوفاة، مدة الارتباط الزوجي، نسبة الخصوبة [في الإنجاب]، المدة الفاصلة بين حمل وآخر، نسبة اللاشرعية، أهمية العزوبة، والترمل وإعادة الزواج. إن هذا المختصر يقدم الوسيلة لتقدير حياة الخلية الأسرية في المجتمع التقليدي.

لقد انتقلت الديمغرافية التاريخية، بابتكارها لطرقها الخاصة [في البحث]، إلى مرحلة الإنجاز. فمنذ 1958، قام الـ INED بالشروع في بحث، متجه نحو الماضي، حول عينة مكونة من أربعين لائحة إحصائية للسكان، الهدف منه تقديم صورة جديدة لتاريخ السكان بفرنسا من عصر لويس الرابع عشر إلى يومنا هذا. وفي نفس الوقت ظهرت أولى الدراسات الوافية حول قرى اختيرت بشكل اعتباطي : إ. غوتييه ول. هنري «السكان بـ[قرية] كرولي» (1958)، ب. غوهيي «السكان بـ[قرية] بود ـ ان ـ بيسان» (1962)؛ ج. گانياج «ثلاث قرى من منطقة ليل دو فرانس» (1963)، الخ. وفي سنة 1962، تشكلت جمعية للديمغرافية التاريخية، بمبادرة من م. رينهارد، ب. غوبير. ل. هنري، ل. شوفالي وج، دوپاكيي؛ فنظمت حلقات دراسية ومناظرات، وجهزت مختبرا [تابعا] للمركز الوطني للبحث العلمي، وأصدرت

مجلة متخصصة ـ «حوليات الديمغرافية التاريخية». وفي جامعات الأقاليم، تكونت مجموعات حول پ. شونو، بمنطقة كاين؛ وحول أ. أرمنانجو بتولوز؛ وحول ج. پ. پوسو ببوردو، وجماعات أخرى، وجهت الطلاب نحو استخدام السجلات الإحصائية في بحوث الإجازة والسلك الثالث. وفي نفس الفترة، قدمت أطروحات تقارن بين التحولات الاقتصادية والتحولات الديمغرافية، وتكشف عن البنيات الخاصة في ميدان الزواج، الإنجاب، الوفاة، في منطقة محددة وعلى مدى طويل. وفي هذا الصدد، يمكن أن نذكر إ. لورري لادوري «فلاحو لانجدوك من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر» (1966)، وف. لوبران «الناس والموت بمنطقة آنجو خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر» (1971). واهتم مؤرخون آخرون بسكان المدن، وهو موضوع أكثر استعصاء على الضبط من سكان البوادي؛ وهكذا، درس م. غاردن «ليون والليونيين خلال القرن الثامن عشر» (1970)؛ ودرس ج. بيرو «منطقة كاين خلال القرن الثامن عشر» (1975). واهتم ج. دوباكيي من جهته بمصادر طالما أهملت، باعتبارها غير مؤكدة ـ الإحصاءات واللوائح الضخمة؛ وقام بنقد جاد لقيمتها التوثيقية؛ ونجح في استعمالها لتقدير توزيع السكان في الأرجاء. وقد برهن على ذلك في أطروحته : «السكان القرويون بالحوض الباريسي في عهد لويس الرابع عشر» (1979). بالتدريج [إذن]، وبفضل تعدد الدراسات الوافية المحلية، والدراسات القيمة الإقليمية والحضرية، تشكلت لوحة ديمغرافية لفرنسا ما قبل الثورة.

وخلال العقد الأخير، تدرجت «الحوليات» من ديمغرافية تاريخية، ذات طابع كمي، في اتجاه أنتروبولوجيا تاريخية ذات مظهر كيفي أكثر. وقد أوضح باحث مستقل، فيليپ أرييس، هذا الطريق في كتاب حول «تاريخ السكان بفرنسا، وموقفهم من الحياة منذ القرن الثامن عشر». ولاحظ هذا الكاتب أن الإحصائيات الديمغرافية تكشف لنا عن نمط عيش الناس، وعن التصور الذي يكونونه عن أنفسهم، أجسادهم، ووجودهم العائلي...» (طبعة ثانية، 1971، ص 15). وقد اتبعت جماعة «الحوليات» هذه النصيحة، فاتجهت نحو دراسة الجسد، سواء كان سليما أو مريضا، والتقت بذلك بتاريخ الطب. في هذا الإطار، يجب أن نشير إلى أعمال ج. ن. بيرابين «الناس والطاعون بفرنسا وبلدان حوض البحر الأبيض المتوسط» (1975)، وح. ليونار : «الأطباء بغرب فرنسا

خـلال القـرن التـاسع عـشـر» (1976). أضف إلى ذلك أن تاريخ السكان قـد انعطف في اتجاه تاريخ الأسرة الذي قاد بدوره إلى تاريخ للجنس يتناول مشاكل المحرمات الدينية، طرق منع الحمل، العلاقات الشرعية وغير الشرعية. وتشهد على ذلك أعمال ج. ل. فلاندران «أشكال الجماع البدوية من القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر» (أرشيف) (1975)؛ ف. لوبران «الحياة الزوجية في عهد ما قبل الثورة» (1975)؛ ج. سولي «الحب بالغرب في العصر الحديث» (1976). وفي الوقت نفسه، حاول البحث أن يلج الميدان الوعر حيث يلتقي البيولوجي والذهني. وبدأ الباحثون يفكرون في موقف الإنسان من الحياة، عن طريق جمع المعلومات حول الإنجاب، الحمل، الولادة والطفولة الأولى.، كما في الكتب، التالية مثلا: ف. آرييس «الطفل والحياة العائلية بفرنسا ما قبل الثورة» (1960)، وأعيد طبعه سنة 1973)؛ ج. جيليس م. لاجيه، م. ف. موريل : «الدخول إلى الحيـاة : الولادات والطفـولة بفـرنسـا التـقليـدية» (1978)؛ م. لاجيه «الولادات» (1982). كما تساءل الباحثون حول موقف الناس من الموت، عن طريق البحث في الطقوس الجنائزية، نصوص الوصايا، أشكال تصور العالم الآخر، كما في الأمثلة التالية : م. فوفيل «الموت قديما» (أرشيف) (1974)؛ ف. آرييس «الإنسـان والموت» (1977)؛ ب. شونو «الموت بباريس من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر» (1978). كل هذه الإنتاجات تشير إلى تحول الدراسات من تحليل الميكانيزمات الديمغرافية إلى تحليل السلوكات الجماعية.

كان م. بلوخ ول. فيفر قد أظهرا منذ بداية العشرينات، اهتماما بمرحلة ما قبل التاريخ، بالفلكلور، وبتاريخ الأديان. ومع ذلك فإن مدرسة «الحوليات» لم تقم اتصالا بين التاريخ والاتنولوجيا إلا في أواخر الستينات، وقد عاد إ. لوروي لادوري، في كتابه «مونتيّو، قرية أوكسيتانية، من 1294 إلى 1324 (1975)، إلى أحد ملفات التحقيقات القضائية المتعلقة بآخر المانويين بلانجدوك؛ وأعاد قراءة استنطاقات المتهمين، وطرح أسئلة جديدة على هذه النصوص، متصرفا كإتنولوجي متجذر في الماضي؛ وهكذا أحيى من جديد مجموعة قروية عاشت بمنطقة بييمون بجبال البرانس في بداية القرن الرابع عشر، عن طريق صياغة وصف للأعمال الزراعية، أنماط تربية المواشي، أوضاع السكن، السلوك اليومي، التكتلات العائلية، الممارسات الجنسية، المعتقدات الدينية،

الطقوس السحرية، والعلاقات مع السلطة؛ وقد كشف عن وجود نظام منسجم، تنتظم فيه الحياة حول «البيت» باعتباره مركزا لشبكة من علاقات القرابة والمصاهرة، وأولى ن. واشتيل، في كتابه «رؤية المهزومين» (1971)، اهتماما لشعوب امبراطورية الأنكا القديمة، بهضاب الأند العليا؛ ولم يكتف برؤية المنتصرين - الإسبان الذين هيمنوا - والتي توجد في مدونات الأخبار المراسلات والتقارير الإدارية للمرحلة الاستعمارية؛ وإنما حاول اكتشاف رؤية المهزومين - الهنود الحمر المقهورين - التي لازالت آثارها في الحكايات، الرقصات والاحتفالات والتظاهرات الفلكلورية في العصر الحديث؛ إن تركيب المقاربتين، التاريخية والاتنولوجية، يسمح بفهم الصدمة العنيفة التي أصابت، خلال القرن السادس عشر، قبائل هندية تعرضت للإبادة بواسطة الغزو العسكري، المخلفات الجرثومية والاستغلال الوحشي. وقد حفزت الأعمال الرائعة للاتنولوجي ك. ليفي ستراوس، وخاصة سلسلة «ميتولوجيات» (1964 - 1972)، بعض المؤرخين من جماعة «الحوليات» على تطبيق طرق التحليل البنيوي للأساطير القروسطية، كما تشهد على ذلك مقالات ج. لوغوف ولوروي لادوري «ميلوزين، الأمومة والخصب» («الحوليات»، 1971)؛ ج. لوغوف وپ. فيدال ناكي «ليفي ستراوس ببروسيلياندا» - وهو بخصوص قصيدة لكريتيان دي ترويس - («الحوليات» 1975). يبدو [إذن] أن التقارب بين الاتنولوجيا والتاريخ قد أعطى نتائج جيدة.

خرجت مدرسة «الحوليات» «من القبو إلى السقف»، كما عبر عن ذلك م. فوفيل، خرجت من تاريخ اقتصادي، وتاريخ اجتماعي،مثمر جدا في الخمسينات والستينات، إلى تاريخ ثقافي، عرف أوج ازدهاره في السبعينات. فقد استوحى ك. ليفي ستراوس وميشيل فوكو دروس المؤرخين الرواد - ل. فيفر وف. آرييس - وأعجبا بالنتائج التي توصل إليها جيرانهما في مجال الاتنولوجيا والفلسفة، فرغب هذان الباحثان الممثلان للجيل الجديد «للحوليات» في استكشاف البنيات الذهنية التي يضعانها في منتصف الطريق بين التنظيم الاجتماعي والخطاب الإيديولوجي، وعلى الحدود بين الوعي واللاوعي، داخل «سجن مدته طويلة». ويختار تاريخ الذهنيات البحث في أنماط تفكير النخبة، الاعتقادات الشعبية، التقاليد الدينية والعادات الدنيوية. وتعبر الأعمال التالية عن هذا التوجه : ر. ماندرو «القضاة

والسحرة بفرنسا خلال القرن الثامن عشر» (1968)؛ م. أغيلون «إخوان التوبة والماسونيون بـ بروفانسا القديمة» (1968) «Penitents et Francs-maçons de l'ancienne Province»؛ م. فوفيل «الورع النادر، والخروج عن المسيحية بـ بروفانسا خلال القرن الثامن عشر» (1978). ويهتم تاريخ الذهنيات أيضا بأشكال الاجتماع. خصوصا الاحتفال الذي يمكن أن يكشف عن التناقضات الاجتماعية المكبوتة. وتمثل الأعمال التالية نموذجا لذلك: م. فوفيل «تحولات الاحتفال ببروفانسيا من 1570 إلى 1820» (1976)؛ م. أزوف «عيد الثورة من 1789 إلى 1799» (1976)؛ إ. لوروي لادوري «كرنفال رومانس أواخر القرن السادس عشر» (1979)؛ وقريبا جدا من علم النفس التاريخي، ظهر الجمع بين التحليل النفسي والتاريخ. وقد عمل أ. بيزانسون على تسليط الضوء على العلاقة بين الملك ورعاياه بروسيا، على ضوء عقدة أوديب، في كتاب «ابن القيصر الضحية» (1968). ويمزج م. دي سيرتو بين التاريخ السياسي وعلم الاجتماع الديني، وعلم النفس المرضي لفهم قضية سحرية في القرن الثامن عشر [في كتابه] «لاودان المسكونة Possession de Loudun» (أرشيف) (1970). إلا أن التاريخ ـ التحليلـ نفسي يعطي الانطباع بالعمل العشوائي، في غياب تصورات إجرائية تسمح بالكشف عن اللاوعي الجمعي، بينما يستمر تاريخ الذهنيات في انطلاقه، لأن طرقه المشكوك فيها، وحدوده غير الدقيقة يسمحان له باستعمال إنجازات التخصصات الأخرى.

عن كتاب :

Guy Bourdé - Hervé Martin : Les écoles historiques, Paris, Seuil - 1983.